﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين إحاطةِ اللهِ بالكونِ والزّمنِ، والتّعجُّبِ من عبادةِ سِواه

بعد أن قدَّم في الآيةِ السّابقةِ الأدلَّةَ الدّامغةَ على عظيمِ خلق اللّهِ تعالى، شاملًا المكان والزَّمان، استفهم هُنا تعجُّبًا وإنكارًا على أولئك الذين يتَّخذون غير اللّهِ خالقِ السّماواتِ والأرض وليًّا أو إلهًا، ثُمَّ أوغلَ في ذكرِ صفاتِ اللّهِ، فذكرَ أنَّه سبحانه قد تكفَّلَ بأرزاقِ الأحياءِ وأقواتها، ثُمَّ أعلنَ الرَّسولُ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ إلى دينِ اللّه سبحانه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَّخِذُ﴾: جذر الكلمة هو (أخذ)، وتَخِذَ، بمعنى: أخذ[1]. تَخِذتُ زيدًا خليلًا، بمعنى: جعلتُهُ، واتَّخذتُه كذلك[2]، ومنه قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النّساء: 125]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125][3].

تلخيصُ لمعاني ما جاء من مادة (أخذ) في القرآن: الأخذُ يعبِّر عن حوزٍ في الأثناءِ بغلظٍ، أي: قبضٍ بقوَّةٍ، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى القبض الحقيقي أو المجازيِّ (55 مرة)، وجاء نحو (78 مرَّةً)، الأخذُ فيها بمعنى: إنزالِ عقوبةِ إهلاكٍ، وهذا قبضٌ؛ لأنَّه جَوْح واجتلاف، ومنها (18 مرَّةً) في أَخْذِ الميثاقِ، وهو تقييدٌ من بابِ القبضِ، وجاءت صيغةُ المؤاخذةِ للمحاسبةِ والمعاقبة تسعَ مرّاتٍ،

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (تخذ).
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تخذ).

وهي نيلٌ بالعقوبةِ من باب القبضِ، وأخيرًا جاء على صيغة افتعل (اتخذ) وما تصرَّفَ منها نيِّفًا ومئة مرة، وأصلُ معناها - كما في الآية الكريمة - أَخْذٌ لنفسِه، فهي قبْضٌ أيضًا[1].

2) ﴿فَاطِرِ﴾: جذر الكلمة هو (فطر) الشَّيءَ يفطُرُه فطرًا، وفطره: شقَّه، والفطرُ: الشَّقُّ، وجمعُه: فُطورٌ، قال تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: 3]. وفطرَ الشَّيءَ، وتفطَّرَ، وانفطرَ، وفي التَّنزيلِ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: 18][2]. وفطر اللّٰهُ الخلقَ، وهو فاطرُ السّماواتِ: مُبتدعُها[3]. وقد فطرَ هذه البئرَ، وفطر اللّٰهُ الشَّجرَ بالورق، فانفطر به وتفطَّر، وتفطَّرتِ الأرضُ بالنَّباتِ[4]، وعن ابنِ عبّاسٍ ﷺ: "ما عرفتُ معنى الفاطرِ حتَّى اختصمَ إليَّ أعرابيّان في بئرٍ، فقالَ أحدُهما: أنا فطرتُها، أي: ابتدأْتُها"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الحُججُ الدَّالَّةُ على وجوبِ وَلايةِ اللهِ، والإسلامِ له، دونَ إشراكٍ به

سيقتْ هذهِ الآيةُ تبكيتًا على الشِّركِ بأبلغِ ما يكونُ؛ فقد وجَّه الرَّسولُ ﷺ الإنكارَ إلى نفسِه بدلًا من توجيهِهِ إليهم؛ تقريرًا لكونِ ما يدعو إليه من اختصاصِ العبادةِ والتَّوجُّهِ للّٰهِ وحدَهُ تعالى هو الحقُّ المُبينُ، ثم دلَّل - سبحانه - على أنَّهُ هو وحده المستحقُّ للعبادةِ: بأنَّه مُبدعُ السَّماواتِ والأرضِ منظِّمُهما، وبأنَّه يرزقُ من يشاءُ من عبادِه، ولا أحدَ من عبادِه يرزقُه، فهو الغنيُّ عنهم، وفي هذين الدَّليلين تعريضٌ بمنِ اتَّخذ أولياءَ من دونهِ مِنَ البشرِ، المُحتاجين للطَّعامِ والعاجزينَ عن الخَلْقِ والإيجاد[6]. ثمَّ أمره تعالى بالخضوعِ له وبالبراءةِ من شِرْكهم ومن أفعالهم القبيحةِ: قل - أيُّها الرَّسولُ -:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخذ).
(2) ابن سيده، المحكم: (فطر).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(5) النّسفي، مدارك التنزيل: 2/7.
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/193.

إنّي أمرني ربي سبحانه أن أكونَ أوَّلَ منِ انقادَ للّه، وخضَعَ له من هذه الأمَّةِ، ونهاني أن أكونَ من الَّذين يشركونَ معهُ غيرَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ، في ثنايَا الآيةِ الكريمةِ:

الولاءُ للهِ وحدَهُ سَنَدٌ في الدُّنيا، ومَلجأٌ في الآخِرةِ

دخلت همزةُ الاستفهامِ على الاسم دون الفعلِ الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾؛ لأنَّ الإنكارَ في اتِّخاذِ غيرِ اللّهِ وليًّا، لا في اتخاذِ الوليِّ، فكان أولى بالتَّقديم[2]، ونظيرُ ذلك قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: 64]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمّا تقدَّم أنَّهُ تعالى خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وأنَّهُ مالك لما تضمَّنه المكانُ والزَّمانُ، أمر تعالى نبيَّهُ أن يقولَ لهم ذلك على سبيلِ التَّوبيخِ لهم[3]، وانتصاب ﴿أَغَيْرَ﴾ على أنَّها مفعولٌ أولُ لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾[4].

بلاغةُ التَّقديمِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾:

تعـيـينُ المـرادِ بـالاستـفـهـامِ، وأنَّـه ليس أهلًا للوَلايةِ إلَّا اللهُ تعالى

قدَّم المفعولَ الأول لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾ على الفعلِ وفاعله ليكون مواليًا للاستفهام؛ لأنَّهُ هو المقصودُ بالإنكارِ، لا مطلقُ اتَّخاذ الوليِّ، فالتَّقديمُ للاهتمام به، وداعي التَّقديم هو تعيينُ المرادِ بالاستفهام، والحقُّ أنَّ التَّقديمَ هنا ليس إلّا للاهتمام بشأن المقدَّم، ليَلِيَ أداة الاستفهام، فيُعْلَمَ أنَّ محلَّ الإنكارِ هو اتِّخاذُ غيرِ اللّهِ وليًّا[5]، كما أنَّ تقديمَ المفعولِ به دلَّ على أنَّ إنكارَ اتِّخاذ غير اللّهِ لا يبقى معه إلّا اتِّخاذُ اللّهِ وليًّا، فكان هذا التركيب مستلزمًا معنى القَصر، وليس هو بدالٍّ على القَصر مطابقةً، ولا مفيدًا لما يفيده القصرُ الإضافيُّ

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 129.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/157.

من قلبِ اعتقادٍ، أو إفرادٍ أو تعيينٍ، فلو كان المفعولُ خلافَ كلمةِ ﴿أَغَيْرَ﴾ لما صحَّ اعتبارُ القَصر[1].

بلاغةُ المجازِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾:

قولُه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ، بمعنى: وهو يرزُقُ، ولا يُرزَق[2]، فقد ذكر الطَّعامَ وأراد الرِّزقَ، أي: ذكر المُسبَّب وأراد السَّببَ، فهو مجازٌ علاقتُه المُسَبَّبيَّة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾؛ إذ أريد أنَّه لا يُرزَق، وهذا استدلالٌ على المشركين بما هو مسلَّمٌ عندهم؛ لأنَّهم يعترفون بأنَّ الرازقَ هو اللهُ وهو خالقُ المخلوقاتِ، وإنَّما جعلوا الآلهةَ الأخرى شركاءَ في استحقاقِ العبادةِ، وقد كثر الاحتجاجُ على المشركين في القرآنِ بمثل هذا كقولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63، 64][3].

أرزاقُ اللهِ للعبادِ مُنهمرةٌ، وهو الرَّازقُ بعَطاءاتِه الغامرةِ

والمعنى: أنَّ المنافعَ كلَّها من عنده، ولا يجوزُ عليه الانتفاع[4].

وجهُ التَّعريضِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾:

في قولِه: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ تعريضٌ بالمُشركين الذين اتَّخذوا لهم آلهةً يقدِّمون إليهم القَرابين، فعرَّضَ بهم وبأفعالِهم، فقال: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، فهو سبحانه مالك المُلكِ، فلا يَحتاج من أحدٍ شيئًا، فلا يُطعَم من أحدٍ، بل إنَّ أسبابَ الرِّزقِ والإطعام كلَّها بيدِه سبحانه.

أسبابُ الرِّزقِ والإطعامِ، بتصريفِ ذي الجلالِ والإكرامِ

بلاغةُ طِباقِ السَّلبِ، في قوله تعالى: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾:

وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، أي: يَرزُقُ ولا يُرزَق، كقولِه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذّاريات: 57]، أي: إنَّ المنافعَ كلَّها من عندِ اللهِ، وخصَّ الإطعام من أنواع الرِّزقِ لمَسِّ الحاجَةِ إليه

ملاءمةُ المحاوَرةِ لأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ في الآيةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ - 157 - 156.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/158.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

وشهرتهِ واختصاصِه بالإنسان[1]، وطباقُ السَّلبِ هو الألصقُ بسياق المحاورةِ؛ إذ هو تفريقٌ بين المعبودِ الحقِّ والمعبوداتِ العاجزة الَّتي اتَّخذوها أولياء، وقد جرى في سياقِ الإنكار التَّوبيخي على اتِّخاذ غيرِ الله وليًا، فكانتِ الجملةُ الحاليَّةُ الواردةُ طباقَ سلبٍ زيادةً في الإنكار وتأكيدًا له، وهذا واردٌ على كلِّ قراءةٍ واردةٍ كقراءة ﴿يُطْعِمُ﴾ بكسر العين، فيكون الرِّزقُ بتقديرِهِ واختياره، فيُطعِمُ من يشاء، ويَمنَعُ من يشاء.

وقرأ مجاهدٌ وابنُ جبير والأعمشُ وأبو حيوة وعمرو بنُ عبيد وأبو عمرو في رواية عنه (ولا يَطعَمُ) بفتح الياءِ والعين، والمعنى: أنَّه تعالى منزَّهٌ عن الأكلِ، ولا يشبه المخلوقينَ.

وفي قراءةِ من قرأَ باختلافِ الفعلين تجنيسُ التَّشكيلِ، وهو أن يكونَ الشَّكلُ فرقًا بين الكلمتين، وسمّاهُ أسامة بن مُنْقذ في بديعتِه (تجنيس التّحريف)، وهو بتجنيس التَّشكيل أولى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون المعنى: وهو يُطعم تارةً، ولا يُطعَم أخرى على حسب المصالح، كقولك هو يُعطي، ويَمنع، ويبسطُ، ويقدرُ، ويُغني، ويُفقر[3].

الإطعامُ يَتأتَّى من الخالقِ للمخلوقِ، ولا يتأتَّى من المخلوقِ للخالقِ

سِرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾:

البناءُ للمفعولِ في قولِه: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فائدتُهُ: (عَدَمُ تَخصيصِ الفاعِلِ) لِقلَّةِ شَأنِه، وفائدَتُهُ هُنا أيضًا لبَيان عَدَمِ وُجودِ فاعِلٍ أصلًا، وذلك لوجود النَّفي في النَّصِّ، فقال: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾. وهذه المفردةُ مهمَّة جدًّا في بيانِ عظيمِ شأنِ الإله، وهي لا تكونُ إلا للّهِ وحده سبحانه، أنَّه هو وحدهُ ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452، وهذه القراءة - (ولا يَطْعَم) - قراءة شاذة. الأخفش، معاني القرآن: 2/270، والسمين، الدر المصون: 3/21.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

بلاغةُ إعادةِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾، في الآيةِ الكريمة:

الاهتمامُ بالمقُولِ، وتقريرُ وجوبِ إفرادِ اللهِ بالعبادةِ

لم تُعطف جملةُ ﴿قُلْ﴾ على نظيرتها في أوَّلِ الآية للإشعارِ باستقلالِ موضوعِها عن الأولى؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ تضمَّنت غرضًا بحالها غير الَّذي أمر فيه بالقولِ قبلَهُ، فإنَّهُ لمّا تقرَّرَ بالقول السّابقِ عبوديةُ ما في السّماوات والأرضِ للّه، وأنَّ مصيرَ كلِّ ذلك إليه، انتقلَ إلى تقريرِ وجوبِ إفرادهِ بالعبادة؛ لأنَّ ذلك نتيجةٌ لازمةٌ لكونه مالكًا لجميع ما احتوته السّماواتُ والأرضُ، فكان هذا التَّقريرُ جاريًا على طريقة التَّعريض؛ إذ أمرَ الرَّسول ﷺ بالتبرّي من أن يُعبدَ غيرُ اللهِ، والمقصودُ الإنكارُ على الَّذين عبدوا غيرَهُ واتَّخذوهم أولياءَ؛ لدلالةِ المقام على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يصدرُ منه ذلك، كيف وقد علِموا أنَّه دعاهم إلى توحيدِ اللّه من أوَّلِ بعثته[1]، وقد ذكر ابنُ عطيَّةَ عن بعض المُفسّرين أنَّ هذا القولَ أُمِرَ به الرَّسولُ ﷺ ليُجيبَ المُشركينَ الَّذين دعوه إلى عبادةِ أصنامهم، أي: هو مثلُ ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: 64][2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأوَّليَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾:

تنوُّعُ الأغراضِ في الأوَّليَّةِ، دالٌّ على الصِّدقِ في كلِّ مَنحَى

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قال الزَّمخشريُّ: لأنَّ النَّبيَّ سابقُ أمَّتِهِ في الإسلامِ، كقولهِ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 163]، وكقول موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143][3]، قال ابن عطيَّةَ: المعنى: أوَّلُ من أسلمَ من هذه الأمَّةِ وبهذه الشَّريعةِ، ولا يتضمَّنُ الكلامُ إلّا ذلك[4]. وهو قولُ الحسن؛ إذ يقول: معناهُ: أوَّلُ من أسلمَ من أمَّتي، وهذا المعنى على الحقيقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/156.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/11.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321

وقيلَ: وفي هذا القولِ نظرٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يصدرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريق التَّعريضِ على الإسلام، كما يأمرُ المَلِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يتبعهُ بقولِه: أنا أوَّلُ من يفعل ذلك ليحملَهم على فعلِ ذلك.

ويمكنُ أن يكون التَّعبيرُ كنايةً عن صفةِ السَّبقِ والفضيلةِ؛ إذ أراد الأوَّليَّةَ في الرُّتبةِ والفضيلة، كما جاءَ في الحديثِ: "نحن الآخِرون الأوَّلونَ يومَ القيامةِ"، وفي رواية "السّابقون"[1]، فالأوَّلُ كنايةٌ عن الأقوى والأمكنِ في الإسلام؛ لأنَّ الأوَّلَ في كلِّ عملٍ هو الأحرصُ عليه والأعلقُ به، فالأوَّليَّةُ تستلزم الحرصَ والقوَّةَ في العمل.

ويمكن أن يكون أيضًا ﴿أَوَّلَ﴾ بمعنى: هو أسرعُ إيمانًا باللهِ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسبَّبيَّةُ، والخطابُ للنّاسِ جميعًا، قال تعالى: ﴿*وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [ال عمران: 133]. ويمكن أن يكون ﴿أَسۡلَمَۖ﴾ بمعنى أخلصَ، ولم يَعْدِل باللهِ شيئًا، ويصلح معنى استسلمَ، أو أراد دخولهُ في دين إبراهيمَ - عليه السلام - كقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: 78]، أو يكون ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ يوم الميثاقِ، فيكون سابقًا على الخلقِ كلِّهم، كما قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾[2].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ المتكلِّمِ إلى المُخاطَبِ في الآيةِ الكريمةِ:

الإسلامُ حَصانةٌ منَ الغيِّ، ووِقايةٌ منَ الشِّركِ

الالتفاتُ في قولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]. التفتَ بفعلِ الكينونةِ من المتكلِّم إلى المُخاطَب، وفائدةُ ذلك أنَّهُ لما أعلن نفسه أوَّلَ من أسلمَ، وهذا مقتضى حالِ كلِّ مسلمٍ أن يقول: أنا أوَّلُ المسلمين، أي: أنشطُهم روحًا وطلبًا

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453، والحديث أخرجه البخاري (برقم: 876)، ومسلم (برقم: 855)، وغيرُهما.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

(3) الصّعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 1/139.

وحُبًّا للإسلام، ثمَّ التفتَ إلى المخاطَب بقولهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أفادَ الخطابُ الإلهيُّ أنَّ على كلِّ مؤمنٍ أن يحذرَ مداخلَ الشيطانِ الَّتي تؤدّي به إلى الشِّرك، والالتفاتِ عن دواعيه والانصرافِ عن المشركين في جميع أحوالِهم.

بلاغةُ قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بين الكِنايةِ والمجازِ:

قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: كُن مؤمنًا، فالنَّهي عن الشِّرك كنايةٌ عن التزام التَّوحيدِ والإيمان الصَّحيح والمُعتقد القويم، فهي كنايةٌ عن نِسبة، فلا تنتسب إلى الشِّرك، ولا يُنتسب إليك الشِّرك والمُشركون.

الـتَّـبـاثُ على الإيـمـانِ، وِقايةٌ مـنَ الـوقـوعِ في بَراثنِ الشِّركِ

أو أنَّ الخطابَ للرَّسول ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والمرادُ أمَّتُه وهذا هو الظّاهرُ على سبيلِ المجازِ المرسل بعلاقة الجزئيَّةِ؛ إذ ذكرَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الرَّسولَ، وأراد الرَّسولَ وأمَّتَه جميعًا، لقولهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزّمر: 65]؛ والعصمةُ تنافي إمكانِ الشِّرك، لذلك فإنَّه خطابٌ للأمَّةِ[1] ومجيئُه على هذا النَّحوِ فيه تربيةٌ لخُلُقِ التَّواضعِ في الأمَّةِ، وإلماعٌ إلى شدَّةِ التَّحرّي من الوقوعِ في براثنِ الشِّرك.

دلالةُ قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ و﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بين الإفرادِ والجمْعِ:

سياقُ الآيةِ الإفرادُ لا الجمعُ، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، ولم يقل: إنّي أمرتُ أن أكونَ أوَّلَ المسلمين، فاقتضى قوله: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أن يناسبَ آخرُ الآية أوَّلها في السّياق، فيقولُ: ولا تكونَنَّ مشركًا، ولكنَّهُ آثرَ الجمعَ على الإفرادِ أولًا؛ لأنَّ الشِّركَ طرقُهُ كثيرةٌ منوَّعةٌ، ومداخلُ الشَّيطان هائلةٌ لا تُعدُّ، ولا تُحصى، فمن خرجَ من دائرةِ الإيمانِ، وهي سبيلٌ واحدٌ لا ثاني له، فقد أوغلَ

الإسـلامُ طريقٌ واحدةٌ للهدايةِ، والشِّركُ طرائقُ شتَّى للغَوايةِ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

في سُبُل الشِّركِ وتاه في أنواعِه وأشكالِه وطرقِه، ثمَّ إنَّه لم يُنسب إليه الشِّركُ ثانيًا رفعًا لمقام الإسلام، وصيانةً لمن قال: ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: 12].

بيانُ التّشابُهِ اللّفظيِّ بين آيةِ الأنعام (14)، وآية الزّمر: (12):

الإسلامُ دينُ اجتماعٍ وفاعليّةٍ، لا دينُ عُزلةٍ ورَهبانيَّةٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ يتحدَّثُ عن الإيمانِ أو عدمِه، فإمّا إيمانٌ وإسلامٌ، وإمّا كفرٌ وإعراضٌ، فقال: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ وهذا لا ينبغي إلّا لرسولِ اللّه حقيقةً، ومعناهُ: أنَّه رسولُ هذه الأمَّةِ، وأنَّه قد أُمر بأداء الرِّسالةِ، فهو أوَّلُ من أسلمَ، أمّا قولهُ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 12]، فسياقُ الآيات في سورة الزُّمرِ يخاطب جماعة المؤمنين، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزّمر: 10]، فأتبعها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 11 - 12]، فجعلَ الخطاب في جماعة المسلمين، فقالَ: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 12]، تناسقًا وانسجامًا مع سياق الآيات، فثمَّةَ جماعةٌ مسلمةٌ ومجتمعٌ مسلمٌ، وقد أُمِرَ كلُّ مسلم أن يتصدَّر مجتمعه بالتَّقوَى والإيمان، فيكون أوَّلَ المسلمين. ثُمَّ إنَّهُ لم يقل: (وأمرت أن أكون مسلمًا)، وذلك لبيان أهمّيَّة الانتماءِ إلى المجتمع المسلم، وأنّ الإسلامَ دينُ مجتمعٍ وأخوَّةٍ، لا دين تفرُّدٍ وعُزلةٍ ورهبانيَّةٍ، والآياتُ القرآنيَّةُ الكريمة والأحاديثُ الصحيحة التي تؤيِّدُ ذلك كثيرةٌ.

دلالةُ معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ولا تكونَنَّ مشركًا)؛ لأنَّ القصدَ ألّا ينتمي إلى جماعة المُشركينَ أو إلى مجتمع المشركينَ،

فيكون منهم، وإن كان مُسلِمًا، ولو قال: (ولا تكونَنَّ مشركًا)؛ لاكتفى بصفةِ الإشراكِ، لكنَّه أوغلَ في النَّهيِ، فنهى المُسلمَ أن ينتَميَ إلى مجتمع المُشركين؛ لأنَّ من عاشَ بين المشركين؛ أوشكَ أن يقعَ في الشِّركِ، وخيف على دينهِ.

مـــنْ عـــاشَـــرَ المشركينَ؛ خِيْفَ عليه من ضَياعِ الدّينِ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»